ق

1

# النيزك



تأليف: ميشيل حنا

رسوم: محمد جمال



(1)

وَقَفتُ لِأَكثَرَ مِن نِصفِ ساعَةٍ مُختَبِئًا بِجوارِ ذلِكَ الحائِطِ المُتَهَدِّمِ. كُنتُ أُريدُ أَن أَتَأَكَّدَ أَنْ لا أَحَدَ في المَتجَرِ.

لَم يَدخُلْ أَو يَخرُجْ أَحَدٌ طَوالَ ذلِكَ الوَقتِ، لكِنَّ ذلِكَ لا يَضمَنُ لي أَنَّ المَكانَ خالٍ. تَعِبتُ مِنَ الوُقوفِ، وَلَم أَعُدْ أَتَحَمَّلُ الجوعَ. سَأَدخُلُ وَلْيَكُنْ ما يَكونُ.

أَخَذتُ أَقتَرِبُ مِنَ المَدْخَلِ شَيئًا فَشَيئًا، وَأَنا أَتَلَفَّتُ حَوْلي. عَيناي حَمْراوانِ وَمُلتَهِبَتانِ، لا تَتَوَقَّفانِ عَنِ الدَّمْعِ. أَنْفي وَفَمي مَلْفوفانِ بِخِرْقَةٍ مِنَ القُماشِ. لا يُفلِحُ هذا في مَنعِ دُخولِ المُلَوِّثاتِ إلى صَدْري. أُحاوِلُ أَلّا أَدخُلَ في نَوبَةِ سُعالٍ جَديدَةٍ تَفضَحُ وُجودي.

وَصَلتُ إلى المَدخَلِ أَخيرًا، وَدَلَفتُ إلى الدّاخِلِ. الظَّلامُ دامِسٌ إلّا مِن بَصيصٍ مِنَ النّورِ يَأتي عَبرَ فُرْجَةِ البابِ المَكسورِ. ظَلِلتُ واقِفًا مَكاني لِفَترَةٍ، حَتّى تَعتادَ عَيناي الظَّلامَ. كُلُّ شَيءٍ مُحَطَّمٌ. فَوْضى تامَّةٌ. كُلُّ ما أَرجوهُ هُوَ أَن أَجِدَ شَيئًا يُسكِتُ مَعِدَتي الَّتي تَأكُلُ نَفسَها، وَالأَهَمُّ أَلّا أُقابِلَ أَحَدًا بِالدّاخِلِ. المَتاجِرُ هِيَ أَخطَرُ مَكانٍ يُمكِنُ أَن يَذهَبَ المَرءُ إلَيهِ.

أَخَـذتُ أَتَقَـدَّمُ بِبُـطءٍ. رَغـمَ أَنَّنـي أُغطّـي أَنْفـي، إلّا أَنَّ رائِحَـةَ العُفونَـةِ كانَـتْ لا تُـحتَمَلُ. لَعَلَّهـا مَـوادٌّ غِذائيَّـةٌ تعَفَّنَـتْ بَعـدَ تَوَقُّـفِ الثّلّاجـاتِ أَو لَعَلَّهـا رائِحَـةُ الفِئـرانِ. لَسـتُ مُتَأَكِّـدًا. واصَلـتُ التَّقَـدُّمَ. دُسـتُ دونَ أَن أَشـعُرَ عَلـى زُجاجَـةٍ بلاستيكيَّةٍ فارِغَـةٍ، فَأَصـدَرَتْ صَوتًـا مُزعِجًـا تَـرَدَّدَ صَداهُ فـي الـمَكانِ. لَـو كانَ هُنـاكَ أَحَـدٌ مُـختَبِئٌ هُنـا، فَلا بُـدَّ أَنَّـهُ عَـرَفَ بِوُجـودي الآنَ. لَـم أَرَ حَتّـى الآنَ سِـوى عُلَـبٍ مُنَظِّفـاتٍ مُتَناثِـرَةٍ هُنـا وَهُنـاكَ. عَلَـيَّ أَن أَتَقَـدَّمَ أَكثَـرَ، وَكُلَّمـا تَقَدَّمـتُ ابتَعَـدتُ عَـن فُرجَـةِ البـابِ، وَصـارَتِ الرُّؤيَـةُ أَصعَـبَ. أَخَـذتُ أَتَـحَسَّسُ الأَرفُـفَ. لا يوجَـدُ شَـيءٌ. تَقَدَّمـتُ أَكثَـرَ. عَبَـرَ شَـيءٌ مـا بِسُـرعَةٍ بِجانِـبِ قَدَمـي. إنَّـهُ فَـأرٌ! لَـم أَعُـدْ أَخافُ مِـنَ الفِئـرانِ. تَقَدَّمـتُ أَكثَـرَ. لَيتَـهُ كانَ مَعـي كَشّـافٌ أَو أَيُّ مَصدَرِ ضَـوءٍ. الآنَ لَـم أَعُـدْ أَرى أَيَّ شَـيءٍ. تَعَثَّـرتُ فـي جِـوالٍ ضَخـمٍ مُلْقًـى عَلـى الأَرضِ. انحَنَيـتُ، وَقَرَّبـتُ وَجْهـي، مُـحاوِلًا أَن أَتَبَيَّـنَ مـا هـذا الشَّـيءُ! أَخَـذتُ أَتَـحَسَّسُ الـجِوالَ فـي الـظَّلامِ. إنَّـهُ مَثقـوبٌ وَمُهتَـرِئٌ، وَيَـحتَوي عَلـى قِطَـعٍ صَغيـرَةٍ عَلـى شَـكلِ فُصـوصٍ ثُلاثيَّـةٍ. يَبْـدو أَنَّ الفِئـرانَ قَـد قَرَضَـتِ الكيـسَ مِـن كُلِّ الاتِّـجاهاتِ. مَـهلًا! أَنـا أَعرِفُ ما هذا!

إنَّـهُ طَعـامُ قِطَـطٍ جـافٌّ! أقعيـتُ عَلـى الأَرضِ وَفَكَكْـتُ القُمـاشَ مِـن حَـولِ وَجْهـي، ثُـمَّ أَخَـذتُ أَدُسُّـهُ فـي فَمـي. طَعمُـهُ بَشِـعٌ! كَأَنَّـهُ سَـمَكٌ مُتَعَفِّـنٌ. لكِـن أَن تُفَكِّـرَ فـي مَسـأَلَةِ الطَّعْـمِ فـي مِثـلِ هـذِهِ الظُّـروفِ... هـذِهِ وَقاحَـةٌ! هـذا أَوَّلُ شَـيءٍ قابِـلٍ لِلأَكلِ يَدخُـلُ فَمـي مُنـذُ ثَلاثَـةِ أَيّـامٍ. هـذا الـجِوالُ سَـيَكْفيني لِفَتـرَةٍ. عَلَـيَّ أَن أَنقُلَـهُ مِـن هُنـا إلـى مَكانٍ آمِـنٍ، لكِنْ، يَـجِبُ أَن أَنتَظِرَ حَتّى يَـحِلَّ الظَّلامُ.

ثَلاثَـةُ أَشـهُرٍ قَـد مَضَـتْ مُنـذُ الكارِثَـةِ. قَبـلَ ذلِـكَ ظَلِلْنـا نَسـمَعُ فـي وَسـائِلِ الإعلامِ عَـن ذلِـكَ النَّيْـزَكِ الَّـذي يَقتَـرِبُ مُهَـدِّدًا الـحَياةَ عَلـى الأَرضِ، وَكانَـتْ نَشَراتُ الأَخبـارِ تُـدْرِجُ أَخبارَ النَّيـزَكِ فـي قِسـمِ الأَخبـارِ الطَّريفَـةِ. مُنـذُ سَـنَواتٍ وَنَحـنُ نَسـمَعُ عَـن أَخبـارِ تِلـكَ النَّيـازِكِ الَّتـي تَقتَـرِبُ مِـن كَوكَبِنـا دونَ أَن يَأخُذَهـا أَحَـدٌ عَلـى مَـحمَلِ الـجِدِّ. لَقَـد خَدَعَتْنـا النَّيـازِكُ لِسَـنَواتٍ. ظَلَّـتْ رائِحَـةً غادِيَـةً تَلعَـبُ مَعَنـا، إلـى أَن أَعْطانـا أَحَدُها الضَّربَـةَ القاضِيَـةَ.

كُنـتُ فـي الـمَدرَسَـةِ يَومَهـا، حيـنَ بَـدَأَ كُلُّ شَـيءٍ يَهتَـزُّ. زِلـزالٌ عـاتٍ أَخَـذَ يَقتَلِعُ الـمَبانِـيَ تِباعًا.




لِـحُسنِ الـحَظِّ أَنَّ مَدرَسَتَنا كانَـتْ مِـن ضِمـنِ مَبـانٍ قَليلَـةٍ صَمَـدَتْ. انطَلَـقَ الـجَميعُ يَـجْرونَ صارِخيـنَ. أَخَـذَ الـطُّلّابُ وَالـمُعَلِّمونَ يَتَدافَعـونَ بِجُنـونٍ وَيَدْهَسـونَ بَعضَهُـم بَعضًا. فـي لَـحَظاتٍ كَهـذِهِ تَـختَفي العُقولُ خَلْـفَ غُيومِ الذُّعـرِ. أَمـواجٌ بَشَـرِيَّةٌ تَـحمِلُ بَعضُهـا بَعضًـا، وَالـكُلُّ يَبحَـثُ عَـن مَـخرَجٍ. أَنَا أَيضًـا كُنـتُ قَطْـرَةً فـي تِلـكَ الأَمـواجِ، وَمَعـي أُخْتـي. نَحـنُ تَوأَمـانِ، وَنَـدرُسُ فـي نَفـسِ الـمَدرَسَةِ، وَنَفسِ الفَصـلِ. أَنـا فَريـدٌ وَهِـيَ فَريـدَةُ. أَمسَـكْنا أَيـدِيَ بَعضِنـا، وَرَكَضْنـا مَـعَ الرّاكِضيـنَ. مَـعَ استِمرارِ الاهتِـزازاتِ، بَـدَأَ يَتَنامـى إِلـى أَسماعِنا أَصـواتُ انهِيـاراتِ الـمَباني حَـولَ الـمَدرَسَةِ. عِندَهـا صـارَ الصُّراخُ يُصِـمُّ الآذانَ. اشـتَدَّ التَّدافُـعُ أَكثَـرَ، وَصـارَتِ الأَجسـادُ تَفصِـلُ بَينـي وَبَيْـنَ فَريـدَةَ. ظَلِلـتُ مُتَشَـبِّثًا بِيَدِهـا بِـكُلِّ قُوَّتـي، لكِـنَّ قُـوَّةَ الضَّغـطِ وَالتَّدافُـعِ فَرَّقَـتْ بَينَنـا أَخيـرًا. ظَـلَّ كُلٌّ مِنّـا يَصـرُخُ بِاسـمِ الآخَـرِ، لكِـنَّ أَصواتَنـا ضاعَـتْ وَسَطَ الصُّراخِ العامِّ. لَقَد فَقَدتُ فَريدَةَ!

لا أَدْري كَيـفَ خَرَجـتُ مِـنَ الـمَدرَسَةِ بَعدَ ذلِـكَ، وَلا كَـم مَضـى مِـنَ الوَقـتِ وَأَنـا أُحـاوِلُ! حيـنَ يُـحاوِلُ أَلـفُ شَخـصٍ الـخُروجَ مِـن بـابٍ واحِـدٍ فـي نَفـسِ اللَّحظَـةِ، لا بُـدَّ أَن تَـحدُثَ كارِثَـةٌ. قَليلـونَ مَـن خَرَجـوا بِـسَلامٍ، بَينَمـا دُهِـسَ كَثيرونَ تَـحتَ الأَقدامِ

أَو سَقطوا مِن فَوقِ السَّلالِم، أَو سُحِقوا تِجاهَ الحَوائِطِ. لِحُسنِ الحَظِّ أَنَّ هُناكَ مَيدانًا مُتَّسِعًا أَمامَ المَدرَسَةِ. جَرَيتُ إلَيهِ، وَوَقَفتُ وَسَطَ المَيدانِ، حَيثُ كانَ النّاسُ يَتَجَمَّعونَ بَينَما استَمَرَّتِ المَباني المُطِلَّةُ عَلى المَيدانِ في الانهيارِ واحِدًا تِلْوَ الآخَرِ. أَخيرًا تَوَقَّفَ الزِّلزالُ، لكِنَّ الصُّراخَ لَم يَتَوَقَّفْ. أَخَذتُ أَتَحَرَّكُ هُنا وَهُناكَ بَحثًا عَن فَريدَةَ. ظَلِلتُ أُنادي لكِن -مَرَّةً أُخرى- ضاعَ صَوْتي وَسَطَ الضَّوضاءِ. تُرى هَلِ استَطاعَتِ الخُروجَ مِنَ المَدرَسَةِ بِسَلامٍ؟ أَخرَجتُ هاتِفي المَحمولَ كَي أَتَّصِلَ بِها. لِحُسْنِ الحَظِّ أَنَّ الشَّبَكَةَ كانَتْ لا تَزالُ تعمَلُ. هاتِفُها مُغلَقٌ أَو غَيرُ مُتاحٍ. اتَّصَلتُ بِأَبي ثُمَّ أُمّي. هَاتِفاهُما غَيرُ مُتاحَينِ أَيضًا. أَخَذتُ أَبحَثُ عَن فَريدَةَ وَسَطَ النّاسِ في المَيدانِ لِفَترَةٍ، لكِنّي لَم أَجِدْها. تُرى هَلِ اتَّجَهَتْ إلى المَنزِلِ؟ عَلَيَّ أَن أَتَّجِهَ إلى هُناكَ. أَبي وَأُمّي في المَنزِلِ، فَهُما يَعمَلانِ مِنَ البَيتِ عَبْرَ الإنترنت. يَجِبُ أَن أَطمَئِنَّ عَلَيهِما هُما أَيضًا. كانَتِ الشَّوارِعُ في فَوضى تامَّةٍ. السَّيّاراتُ مُحَطَّمَةٌ، وَكُتَلٌ مِنَ الأَحجارِ مُتَناثِرَةٌ في كُلِّ مَكانٍ مِن أَثَرِ المَباني المُنهارَةِ وَالنّاسُ يَجْرونَ مِن هُنا إلى هُناكَ

بَينَما رائِحَةُ المَوتِ تَعْبَقُ في الجَوِّ. كانَتِ الحَرَكَةُ في غايَةِ الصُّعوبَةِ. البَيتُ قَريبٌ مِنَ المَدرَسَةِ، لكِنَّ كَثيرًا مِنَ الشَّوارِعِ كانَتْ مَداخِلُها مَسْدودَةً بِرُكامِ المَباني المُنهارَةِ. ظَلِلتُ أَلُفُّ وَأَدورُ، مُحاوِلًا الوُصولَ إلى شارِعي. كانَتِ الحَرائِقُ قَد بَدَأَتْ في الاندِلاعِ نَتيجَةً لِتَحَطُّمِ أنابيبِ الغازِ مَعَ سُقوطِ العِماراتِ، وَبَدَأَ الدُّخانُ الأَسوَدُ يُعَبِّقُ الهَواءَ. ما الَّذي حَدَثَ؟ كانَ يَومًا عادِيًّا في المَدرَسَةِ، وَفَجأَةً حَلَّتْ نِهايَةُ العالَمِ. هَل هذا كابوسٌ؟ هَل أَنا أَحلُمُ؟ لَيتَني كُنتُ أَحلُمُ، لكِنَّ رائِحَةَ المَوتِ الَّتي أَشُمُّها، وَهذا الخَرابُ الَّذي أَراهُ بِعَينَيَّ لا يُمكِنُ إلّا أَن يَكونَ حَقيقِيًّا.

أَخيرًا وَصَلتُ إلى المَنزِلِ، أَو لَعَلَّهُ مِنَ الأَصَحِّ أَن أَقولَ: المَوضِعِ الَّذي كانَ فيهِ المَنزِلُ؛ لِأَنَّ ما وَجَدتُهُ لَم يَكُنْ سِوى رُكامٍ!
العَجيبُ أَنَّني لَم أَبْكِ. لَم أَذرِفْ دَمعَةً واحِدَةً. كانَتِ الصَّدْمَةُ قَد شَلَّتْ تَفكيري وَمَشاعِري. لَم أُحاوِلْ حَتّى أَن أَتَأَمَّلَ في الأَمرِ، أَو أُفَكِّرَ. لَيسَ هُناكَ وَقتٌ لِحُزنٍ أَو حِدادٍ. سَأَبْكي فيما بَعدُ. سَأَبْكي كَثيرًا جِدًّا، لكِنِ الآنَ... لَيسَ عَلَيّ سِوى أَن أُفَكِّرَ في كَيفِيَّةِ النَّجاةِ.

(2)

حَلَّ الظَّلامُ أخيرًا، وَلَم أَعُدْ أَسمَعُ بِالخارِجِ سِوى خَشْخَشَةِ الفِئرانِ. كُنتُ قَد جَمَعتُ مَجموعَةً مِن أَكياسِ المَتجَرِ الفارِغَةِ المُتَناثِرَةِ في المَكانِ، وَأَفرَغتُ فيها ما تَبَقّى مِن طَعامِ القِطَطِ مِن ذلِكَ الجِوالِ المُهتَرِئِ. اقتَرَبتُ مِنَ البابِ شَيئًا فَشَيئًا. لَم يَكُنْ هُناكَ أَحَدٌ في الشّارِعِ. لَفَفتُ أَنْفي وَفَمي بِخِرْقَةِ القُماشِ، وَأَخَذتُ أَتَحَرَّكُ. يَجِبُ أَلّا يَرانِيَ أَحَدٌ وَأَنا أَحمِلُ هذا الطَّعامَ، وَإلّا انقَضَّ عَلَيَّ الجَوْعى الهائِمونَ في الشَّوارِعِ.

أُحاوِلُ الحَرَكَةَ في الشَّوارِعِ وَوَسَطَ الخَرائِبِ دونَ أَن أُصدِرَ صَوتًا مُحتَمِيًا بِالظَّلامِ. الرَّمادُ يَتَساقَطُ فَوْقي وَحَوْلي. لا أَعرِفُ لِماذا تَزيدُ هذِهِ الظّاهِرَةُ في أَثناءِ اللَّيلِ. البَردُ أَصبَحَ قارِسًا، وَالتَّنَفُّسُ صارَ أَصعَبَ مَعَ هذا الهَواءِ المُلَوَّثِ.
لِحُسنِ الحَظِّ أَنَّني وَصَلتُ بِسَلامٍ إلى مَخبَئي. تَسَلَّقتُ كَوْمَةً مِنَ الرُّكامِ. أَزَحتُ لَوْحًا مِنَ الخَشَبِ يُخفي شَقًّا أَسفَلَ جِدارٍ يَنتَمي إلى رُكامِ عِمارَةٍ مُنهارَةٍ.

هذا الشَّقُّ يُؤَدّي إلى غُرفَةٍ سَليمَةٍ تَنتَمي إلى إحْدى شُقَقِ الدَّورِ الأَوَّلِ في تِلكَ البِنايَةِ، لكِنَّ الرُّكامَ يُغَطّي كُلَّ شَيءٍ مِن أَعْلى، وَيَجِبُ تَسَلُّقُ كَومَةِ الرُّكامِ لِنَحوِ ثَلاثَةِ أَمتارٍ مِن أَجلِ الوُصولِ إلى الشَّقِّ. اكتَشَفتُ هذا المَكانَ بَعدَ ساعاتٍ مِنَ الزِّلزالِ الَّذي بَدَأَ بِهِ كُلُّ شَيءٍ. بَعدَ الزِّلزالِ مُباشَرَةً، انقَطَعَتْ خِدماتُ الكَهرَباءِ وَالماءِ وَالغازِ وَالهَواتِفِ الأَرضِيَّةِ، بَينَما ظَلَّتْ خِدمَةُ الهَواتِفِ النَّقّالَةِ تَعمَلُ في مَناطِقَ مُتَفَرِّقَةٍ قَبلَ أَن تَنقَطِعَ نِهائيًّا بَعدَها بِأَربَعٍ وَعِشرينَ ساعَةً. في تِلكَ السّاعاتِ القَليلَةِ، استَطَعتُ أَن أَعرِفَ كُلَّ ما أَعرِفُهُ الآنَ عَمّا حَدَثَ عَن طَريقِ مُتابَعَةِ الأَخبارِ عَلى هاتِفي عَلى مَواقِعِ الأَخبارِ وَاليوتيوب. بَعدَها انقَطَعَتِ الشَّبَكَةُ، وَصارَتْ كُلُّ المَعلوماتِ المُتَداوَلَةِ التّالِيَةِ تَندَرِجُ تَحتَ بَندِ الإشاعاتِ وَالخُرافاتِ وَالمَعلوماتِ المَغلوطَةِ وَأَنصافِ الحَقائِقِ.
سَقَطَ النَّيزَكُ عَلى السَّواحِلِ الجَزائرِيَّةِ. كانَ الزِّلزالُ المُدَمِّرُ الَّذي هَدَمَ أَكثَرَ مِن نِصفِ مَباني المَدينَةِ ناجِمًا عَنِ اصطِدامِ النَّيزَكِ بِالأَرضِ. الرُّكامُ المُتَطايِرُ مِنَ النَّيزَكِ عِندَ الاصطِدامِ اندَفَعَ إلى الأَعلى



وَأَخَذَ يَتَساقَطُ عَلى مَسافاتٍ شاسِعَةٍ، مُسَبِّبًا الـمَزيدَ مِنَ الدَّمارِ لِلعَديدِ مِنَ الـمُدُنِ وَبَعضُهُ انطَلَقَ إلى الفَضاءِ الخارِجيِّ، وَاتَّخَذَ مَدارًا حَولَ الأَرضِ وَمِنَ الـمتُوَقَّعِ أَن يَتَساقَطَ شَيئًا فَشَيئًا خِلالَ الأَسابيعِ القادِمَةِ لِيَتَسَبَّبَ في الـمَزيدِ مِنَ الـخَرابِ. هـذا ما قالَتْهُ مُذيعَةُ الأَخبارِ تِلكَ في مَقطَعٍ شَهيرٍ انتَشَرَ عَلى اليوتيوب، وَكانَ هـذا آخِرَ ما رَأَيتُهُ قَبلَ الانقِطاعِ النِّهائيِّ لِلشَّبَكَةِ. بَعدَ الزِّلزالِ، اندَلَعَتِ النّيرانُ في كُلِّ مَكانٍ، ثُمَّ هَبَّتْ ريحٌ إعصارِيَّةٌ عاتِيَةٌ اقتَلَعَتْ مُعظَمَ الأَشجارِ، كَما أَسقَطَتْ بَعضَ الـمَباني أَيضًا. كانَتْ هـذِهِ هِيَ الأَيامَ الأَصعَبَ. لا يُمكِنُني أَن أَصِفَ بِكَلِماتٍ صُعوبَةَ تِلكَ الأَيّامِ. آلافُ النّاسِ بِلا مَأوًى في الشَّوارِعِ وَسَطَ هـذِهِ الرِّياحِ الَّتي تُزَحزِحُ الرُّكامَ وَتُلقيهِ عَلى رُؤوسِهِم. لَوْ لَم أَجِدْ ذَلِكَ الـمَأوى الَّذي أَختَبِئُ بِهِ حَتّى اليَومِ، لَما تَمَكَّنتُ مِنَ النَّجاةِ.

هـذا الـمَبْنى الـمُنهارُ الَّذي أَقطُنُ بِإِحْدى غُرَفِهِ يَقَعُ قُبالَةَ مَنزِلي. مُنذُ ذلِكَ الوَقتِ أَبْقى هُنا أُراقِبُ وَأَرتَقِبُ عَودَةَ فَريدَةَ. أَشعُرُ أَنَّها ما زالَتْ حَيَّةً وَأَنَّها مَوجودَةٌ في مَكانٍ ما. يَقولونَ: إنَّ هُناكَ صِلَةً غامِضَةً بَينَ التَّوائِمِ وَإِنَّهُم يَشعُرونَ بِبَعضِهِم. حَدْسي يُخبِرُني أَنَّها بِخَيرٍ، وَأَنَّها تَبحَثُ عَنّي. إذا كانَتْ تَبحَثُ عَنّي، فَلا بُدَّ أَن تَعودَ إلى هُنا، لِهذا أَبْقى هُنا وَأُراقِبُ.



(3)

أَشعَلتُ شَمعَةً وَثَبَّتُها عَلى طَبَقٍ، وَوَضَعتُها في الرُّكْنِ. عَلَّقتُ أَكياسَ طَعامِ القِطَطِ عَلى مِسمارٍ في الحائِطِ، آمِلًا أَلّا تَصِلَ إِلَيها الفِئرانُ. كانَ مِنَ المُمكِنِ أَن أُغلِقَ عَلَيها الثَّلّاجَةَ، إِلّا أَنَّ رائِحَتَها لا تُطاقُ.

لَوْلا هذا المَكانُ الَّذي اكتَشَفتُهُ بِالصُّدفَةِ لَما صَمَدتُ يَومًا واحِدًا. المَكانُ عِبارَةٌ عَن حُجرَةِ جُلوسٍ ظَلَّتْ سَليمَةً بِمُعجِزَةٍ ما. الرَّدْهَةُ المُؤَدِّيَةُ إِلى باقي حُجُراتِ الشَّقَّةِ مَسدودَةٌ بِكُتلَةٍ ضَخمَةٍ مِنَ الخَرَسانَةِ سَقَطَتْ مِنَ السَّقفِ. توجَدُ بِالحُجرَةِ أَربَعَةُ كَراسيَّ وَأَريكَةٌ، وَوَحدَةُ أَدراجٍ صَغيرَةٌ، وَطاوِلَةُ سُفرَةٍ مَعَ سِتَّةِ كَراسيَّ. هُناكَ ثَلّاجَةٌ لا تَعمَلُ حالِيًا بِطَبيعَةِ الحالِ. مِن حُسنِ الحَظِّ، أَنَّ الأُسرَةَ الَّتي كانَتْ تَعيشُ هُنا مِنَ الأُسَرِ الَّتي تَضَعُ الثَّلّاجَةَ في حُجرَةِ الجُلوسِ وَهِيَ عادَةٌ قَديمَةٌ تَنتَمي إِلى العُصورِ الَّتي كانَتْ فيها المَطابِخُ ضَيِّقَةً جِدًّا، وَلا تَكْفي لِوَضْعِ جِهازٍ كَالثَّلّاجَةِ. أَنقَذَتْ هذِهِ الثَّلّاجَةُ حَياتي. عِشتُ لِشَهرٍ كامِلٍ عَلى بَقايا المَوادِّ الغِذائِيَّةِ الَّتي كانَتْ بِها، وَقَد ساهَمَتْ بُرودَةُ الجَوِّ الفُجائِيَّةُ الَّتي تَلَتِ النَّيزَكَ عَلى حِفظِ كَثيرٍ مِنَ المَوادِّ الَّتي كانَتْ فيها مِنَ التَّلَفِ.

خمسُ عُلَبٍ مِنَ الجُبنِ المُعَلَّبِ، وَسِتُّ حَبّاتٍ مِنَ الطَّماطِمِ، وَجزَرَتانِ وَتُفّاحَةٌ، وَتِسعُ بَيضاتٍ، وَأَربَعُ زُجاجاتِ ماءٍ مُمتلِئَةٍ. كانَ هذا كَنْزًا. لَقَد جَنَّبَني الاحتِياجَ إلى الخُروجِ في الشَّهرِ الأَوَّلِ الَّذي كانَتْ فيهِ الفَوضى عَلى أَشُدِّها، وَكانَ النّاسُ يَتَقاتَلونَ وَيَذبَحُ بَعضُهُم بَعضًا مِن أَجلِ كيسٍ مِن رَقائِقِ البَطاطِسِ المُقَرمَشَةِ. كانَ مُجَمِّدُ الثَّلّاجَةِ يَحتَوي عَلى بَعضِ اللَّحمِ المُجَمَّدِ، لكِن لَم تَكُنْ هُناكَ وَسيلَةٌ لِطَهيِهِ، لِذا تَخَلَّصتُ مِنهُ قَبلَ أَن يَتَعَفَّنَ. في الأَسابيعِ التّالِيَةِ ظَلِلتُ أَتَناوَلُ يَوميًّا قِطعَةً صَغيرَةً مِنَ الجُبنِ، وَأَشرَبُ جُرعَةً مِنَ الماءِ. لَم يَكُنِ الأَمرُ سَهلًا! أَنْ تَتَحَمَّلَ الجوعَ وَأَنتَ تَملِكُ الطَّعامَ، وَفي إمكانِكَ أَن تَفتَحَ بابَ الثَّلّاجَةِ وَتُسكِتَ هذا الجوعَ، لكِنَّكَ تَختارُ أَن تَصبِرَ لِليَومِ التّالي؛ لِأَنَّكَ استَخدَمتَ حِصَّتَكَ المُخَصَّصَةَ لِهذا اليَومِ، أَعتَقِدُ أَنَّ هذِهِ كانَتْ شَجاعَةً وَحُسنَ تَصَرُّفٍ مِنّي. لَقَد كُنتُ بَطَلًا! أَنا فَخورٌ بِنَفْسي!

قُمتُ أَيضًا بِفَكِّ السَّتائِرِ، وَاستَخدَمتُها كَدِثارٍ مِن عِدَّةِ طَبَقاتٍ. وَفي اللَّيلِ كُنتُ أَقومُ بِطَيِّ السَّجّادَةِ، وَدَسِّ نَفْسي مَعَ سَتائِري وَسَطَها. مَنَحَني هذا بَعضَ الدِّفْءِ. في الحُجرَةِ أَيضًا دولابٌ صَغيرٌ بِهِ بِضعُ كُؤوسٍ وَأَطباقٍ، وَطاوِلَةٌ صَغيرَةٌ، وَتِلفازٌ، وَصورَةٌ مُؤَطَّرَةٌ عَلى الحائِطِ لِأَحَدِ جُدودِ الأُسرَةِ. هذا هُوَ كُلُّ ما لَدَيَّ في هذِهِ الحُجرَةِ، أَوِ المَخْبَأ، أَوِ المَقَرِّ، أَوِ المَأْوى الَّذي يُؤْويني، إضافَةً طَبعًا إلى المَلَلِ. الكَثيرُ جِدًّا مِنَ المَلَلِ، وَالوَحْدَةِ، وَالقَلَقِ، وَالخَوفِ، وَالحُزنِ. هؤلاءِ هُم رِفاقي هُنا!



## (4)

لَـم أَسـتَطِعْ أَن أَنـامَ طيلَـةَ اللَّيـلِ. ظَلِلـتُ أَرتَـجِفُ، وَلَـم تُفلِـحْ كُلُّ تَدابيـري فـي مَنْحـي بَعـضَ الـدِّفْءِ. كانَـتْ لَيلَـةً بـارِدَةً حَقًّـا. الـجَوُّ يَـزدادُ بُـرودَةً يَومًـا بَعـدَ الآخَـرِ، وَنـورُ النَّهـارِ يَضعُـفُ بِاستِمرارٍ. إنَّنـا نَدخُـلُ شَـيئًا فَشَـيئًا فيمـا يُسَـمّى بِالشِّـتاءِ النَّـوَوِيِّ. كُلَّ يَـومٍ تَـزدادُ كَثافَـةُ طَبَقَـةِ الـمُلَوِّثاتِ وَالسُّـخامِ فـي الـهَواءِ، وَالَّتـي تَـحجُبُ أَشِـعَّةَ الشَّـمسِ عَنِ الأَرضِ. يَقِـلُّ الضَّـوءُ وَتَقِـلُّ دَرَجَـةُ الـحَرارَةِ. كانَ هـذا أَيضًـا مِـمّا تَنَبَّـأَتْ بِـهِ تِلـكَ الـمُذيعَةُ فـي مَقطَـعِ اليوتيـوب. تُـرى كَيـفَ أَنـتِ الآنَ يـا فَريـدَةُ؟ وَكَيفَ تَقينَ نَفسَـكِ مِنَ البُرودَةِ؟

كُلَّمـا مَـرَّ الوَقـتُ، خَفَـتَ الأَمَـلُ فـي أَن أَجِـدَ فَريـدَةَ. أَشـعُرُ أَنَّنـي لا أَبـذُلُ جُهـدًا كافِيًـا لِلعُثـورِ عَلَيها، لكِن مـاذا بِيَدي أَن أَفعَلَ؟!

كُنـتُ جائِعًـا. ظَلِلـتُ أُنـازِعُ رَغبَتـي فـي تَنـاوُلِ بَعـضِ طَعـامِ القِطَـطِ هـذا لِفَتـرَةٍ، لكِنّـي استَسـلَمتُ وَفَتَحـتُ الكيـسَ أَخيـرًا عَلـى أَمَـلِ أَن أَجِـدَ شَـيئًا آخَـرَ يُؤكَـلُ حيـنَ أَخـرُجُ اليَـومَ. كُنـتُ قَـد قَـرَّرتُ أَن أُخاطِـرَ بِالـخُروجِ عَلـى فَتَـراتٍ أَقصَـرَ. البَقـاءُ فـي هـذِهِ الغُرفَـةِ لِفَتَـراتٍ طَويلَـةٍ أَضَـرَّ بي كَثيرًا.

الرُّطوبَـةُ عالِيَـةٌ جِـدًّا، رُبَّمـا بِسَـبَبِ بُخـارِ المـاءِ النّاتِـجِ عَـن تَنَفُّسـي. البُـرودَةُ... الـظَّلامُ... صَـوتُ خَشْخَشَـةِ الفِئرانِ...الـخَوفُ وَالوَحـدَةُ، كُلُّ ذلِـك أَرهَقَني.أُصِبـتُ بِالضُّعـفِ وَالـهُزالِ، وَصـارَتْ مَفاصِلـي تُؤلِـمُني بِصـورَةٍ مُسـتَمِرَّةٍ. صَحيـحٌ أَنَّ هـذا الاختِبـاءَ الـمُستَمِرَّ قَـد أَنقَذَنـي مِـن أَخطـارِ الخـارِجِ وَأَبْقانـي حَيًّـا حَتّـى اليَـومِ، إلّا أَنَّنـي لَـم أَعُـدْ أَتَـحَمَّلُ. إنَّني أَمـوتُ هُنا بِبُطءٍ.

أَزَحـتُ اللَّـوحَ الـخَشَبِيَّ الَّـذي يَسُـدُّ الشَّـقَّ فـي الـجِدارِ، فَلَفَحَتْنـي ريحٌ شَـديدَةُ البُـرودَةِ. الضَّـوءُ ضَعيـفٌ لِلغايَـةِ. هَـل نَحـنُ فـي النَّهـارِ أَم فـي اللَّيـلِ؟ حَقًّـا لَـم أَعُـدْ أَعـرِفُ! غُيـومُ الرَّمـادِ وَالسُّـخامِ صـارَتْ أَكثَـرَ كَثافَـةً. هَـل هـذا الضَّـوءُ الضَّعيـفُ آتٍ مِـنَ الشَّـمسِ الَّتـي تُـحاوِلُ اختِـراقَ الغَمـامِ، أَم هُـوَ ضَـوءُ الـحَرائِقِ الـمُشتَعِلَةِ الَّتـي تُضيءُ الأُفُقَ وَيَنعَكِسُ ضَوءُها عَلى أَسفَلِ الغُيومِ؟

وَقَفـتُ أُراقِـبُ لِفَتـرَةٍ. لا يوجَـدُ أَحَـدٌ. أَعَـدتُ لَـوحَ الـخَشَبِ إلـى مَكانِـهِ. بَدَأتُ أَهبِطُ فَوقَ الرُّكامِ إلى مُستَوى الشّارِعِ.

أَخَـذَتِ الرّيحُ تُطَيِّرُ السَّـتائِرَ الـمُمَزَّقَةَ الَّتـي أَتَلَحَّفُ بِها.

اليَومُ أَكثَرُ بُرودَةً مِن أَيِّ يَومٍ مَرَّ عَلَيَّ. أَخَذتُ أَتَلَفَّتُ حَوْلي. كانَتْ عِمارَتُنا المُنهارَةُ تَرقُدُ مَكانَها هُناكَ في النّاحِيَةِ الأُخرى مِنَ الطَّريقِ. أَكوامٌ مِنَ الحِجارَةِ وَالرُّكامِ، كَأَنَّها شاهِدُ قَبرٍ ضَخمٍ لِكُلِّ مَن ماتوا فيها.

فَكَّرتُ أَن أُجَرِّبَ حَظّي مَرَّةً أُخرى مَعَ المَتجَرِ. لا بُدَّ أَنَّ هُناكَ أَشياءَ أُخرى مَنسيَّةً بِالدّاخِلِ. في هذِهِ المَرَّةِ مَعي شَمعَةٌ وَأَعوادُ ثِقابٍ. مِن حُسْنِ حَظّي أَنَّ الأُسرَةَ الَّتي أَسكُنُ في حُجرَةِ جُلوسِها كانَتْ تَحتَفِظُ بِالكَثيرِ مِنَ الشَّمعِ وَعُلَبِ الكِبريتِ في أَحَدِ الأَدراجِ. أَخَذتُ أَجِدُّ في السَّيْرِ كَي أَمنَحَ نَفْسي بَعضَ الدِّفءِ. لِحُسنِ الحَظِّ، لَم أُصادِفْ أَحَدًا في الطَّريقِ.

فَجأَةً، شَعَرتُ أَنَّ الضَّوءَ يَتزايَدُ، وَأَنَّ الرُّؤيَةَ صارَتْ أَوضَحَ. رَفَعتُ رَأسي فَرَأَيتُ ضَوءًا ضَعيفًا قادِمًا مِن خَلفِ سُحُبِ السُّخامِ. دَقَّقتُ النَّظَرَ، فَإذا ثَلاثُ نِقاطٍ بَيضاءَ تَتَحَرَّكُ مَعًا مُسافِرَةً في نَفسِ الاتِّجاهِ. أَهِيَ مُذَنَّباتٌ أَم شُهُبٌ؟ أَم أَجرامٌ عَكَسَتْ ضَوءَ الشَّمسِ إِلَينا كَما يَفعَلُ القَمَرُ؟ ظَلِلتُ أُتابِعُها بِبَصَري إِلى أَنِ اختَفَتْ، وَقَد عادَ الظَّلامُ كَما كانَ.

وَصَلتُ أَخيرًا إِلى المَتجَرِ. دَلَفتُ إِلى الدّاخِلِ بِسُرعَةٍ كَي أَتَّقِيَ تِلكَ الرِّياحَ البارِدَةَ. كانَتْ تِلكَ هِيَ اللَّحظَةَ الَّتي فَقَدتُ فيها تَرْكيزي وَحَذَري. خَطَأٌ واحِدٌ في هذا العالَمِ قَد يَكونُ هُوَ الخَطَأَ الأَخيرَ. فوجِئتُ بِخَمسَةِ شَبابٍ جالِسينَ بِالدّاخِلِ وَقَد أَشعَلوا نارًا. تَسَمَّرتُ في مَكاني في رُعْبٍ. خَمسَةٌ ضِخامُ الجُثَّةِ، يَرتَدونَ مَلابِسَ ثَقيلَةً مِنَ الفَرْوِ، لا أَدْري كَيفَ حَصَلوا عَلَيها! تُضيءُ النّارُ وُجوهَهُم مِن أَسفَلَ مِمّا يَمنَحُهُم مَظهَرًا مُخيفًا، وَكانوا يُحَدِّقونَ بي. كُلُّ ما فَكَّرتُ فيهِ هُوَ أَنَّهُم عِصابَةٌ أُخرى مِنَ العِصاباتِ الَّتي تَجوبُ الشَّوارِعَ. أَفرادُ تِلكَ العِصاباتِ بَدَلًا مِن أَن يَبحَثوا عَن طَعامِهِم وَحاجيّاتِهِم بِأَنفُسِهِم، فَإِنَّهُم يَبحَثونَ عَنِ النّاجينَ وَيَستَولونَ عَلى ما لَدَيهِم مِن غِذاءٍ أَو مَلْبَسٍ، وَأَحيانًا المَأْوى. لَيتَهُم يَكتَفونَ بِهذا، لكِنَّهُم يَرتَكِبونَ الكَثيرَ مِنَ الفَظائِعِ، حَيثُ لا وُجودَ لِسُلطَةٍ حاكِمَةٍ أَو قانونٍ يَنحَدِرُ الإنسانُ بِسُرعَةٍ خارِقَةٍ نَحوَ عُصورِهِ الهَمَجِيَّةِ الأولى.

تَراجَعتُ بِظَهْري في حَذَرٍ نَحوَ البابِ. دونَ مُقَدِّماتٍ، قَفَزَ أَحَدُهُم نَحْوي.

استَدَرتُ بِسُرعَةٍ، وَجَرَيتُ إلى الخارِجِ. لَم أَعْدُ سِوى بِضعِ خُطُواتٍ، حَتّى شَعَرتُ بِهِ يُمسِكُ بي مِنَ الخَلفِ. انكَفَأتُ عَلى وَجْهي عَلى الأَرضِ. انخَلَعَتِ السَّتائِرُ الَّتي كُنتُ مُتَلَحِّفًا بِها. تَرَكتُها في يَدِهِ، وَنَهَضتُ لِأَجرِيَ ثانِيَةً بِكُلِّ قُوَّتي. أَشعُرُ بِصَدْري يَصعَدُ وَيَهبِطُ، وَقَلْبي يَكادُ يَخرُجُ مِن صَدْري. أَنا مُصابٌ بِهُزالٍ شَديدٍ. لَيسَتْ لَدَيَّ أَيُّ قُوَّةٍ لِلجَرْيِ. خُطُواتٌ قَليلَةٌ أُخرى، وَكانَ قَد أَمسَكَ بي مِن ياقَةِ القَميصِ. أَخَذَ يُجَرجِرُني عَلى الأَرضِ عائِدًا بي إلى المَتجَرِ.

وَجَدتُ نَفْسي عَلى الأَرضِ مُحاطًا بِالخَمسَةِ. دَسَّ أَحَدُهُم يَدَهُ في جُيوبي، وَأَخرَجَ الشَّمعَةَ وَعُلبَةَ الثِّقابِ. صاحَ أَحَدُهُم في فَرَحٍ دونَ أَن يَشعُرَ بِمُجَرَّدِ أَن رَأى العُلبَةَ. الثِّقابُ شَيءٌ قَيِّمٌ جِدًّا في هذا العالَمِ الخَرِبِ. لَم يَكُنْ مَعي شَيءٌ آخَرُ.
تَذَكَّرتُ مَوقِفًا شَبيهًا حَدَثَ لي مُنذُ شَهرٍ عِندَما قَرَّرتُ التَّجَوُّلَ في المِنطَقَةِ، وَكُنتُ قَد بَقيتُ في مَخبَئي طَويلًا جِدًّا حَتّى شَعَرتُ أَنَّني قَدِ انعَزَلتُ تَمامًا، وَلَم أَعُدْ أَدْري ماذا يَحدُثُ في العالَمِ! يَومَها فوجِئتُ بِتِلكَ العِصاباتِ الَّتي تَجوبُ الشَّوارِعَ، وَقَد كادَ بَعضُها أَن يُمسِكَ بي يَومَها، إلّا أَنَّني تَمَكَّنتُ مِنَ الهَرَبِ بِمُعجِزَةٍ.
سَأَلَني أَحَدُهُم:
- ما اسمُكَ؟
كُنتُ أَرتَجِفُ مِنَ الرُّعبِ وَمِنَ البَردِ، فَخَرَجَ صَوْتي مَهزوزًا.
- فَريدُ.
استَأنَفَ:
- ماذا تَفعَلُ هُنا يا فَريدُ؟
- أَبحَثُ عَن طَعامٍ.
- لا يوجَدُ شَيءٌ بِالدّاخِلِ. لَقَد جِئتَ مُتَأَخِّرًا جِدًّا. عِندَما وَجَدْنا هذا المَكانَ لِلمَرَّةِ الأولى كانَ مَنهوبًا بِالكامِلِ. لَم يَكُنْ فيهِ أَيُّ شَيءٍ ذي قيمَةٍ، سِوى بَعضِ أَجْوِلَةِ طَعامِ القِطَطِ. كُنتُ أَتَرَدَّدُ عَلى هذا المَكانِ لِإِطعامِ قِطّي المِسكينِ شَرْكَس.
هُنا سَمِعتُ صَوتَ قِطٍّ يَموءُ، وَيَبْدو أَنَّ القِطَّ انتَبَهَ عِندَما سَمِعَ اسمَهُ.
- الآنَ... هُناكَ جِوالٌ ناقِصٌ. لا تَقُلْ لي إِنَّكَ أَنتَ الَّذي أَخَذْتَهُ.
لَم أَرُدَّ. اقتَرَبَ أَحَدُهُم مِنّي وَجَذَبَني مِن مَلابِسي كَي أَنهَضَ



ثُمَّ أَخَذَ يَتَشَمَّمُ فَمي. كانَتْ رائِحَتُهُ نَفّاذَةً وَكَريهَةً لِلغايَةِ. لا بُدَّ أَنَّ رائِحَتي أَنا أَيضًا كَريهَةٌ، فَأَنا لَم أَستَحِمَّ مُنذُ ثَلاثَةِ أَشهُرٍ، لكِنَّ المَرءَ لا يَستَطيعُ أَن يَشُمَّ نَفسَهُ. صاحَ:

- إِنَّهُ هُوَ! لَقَد أَكَلَ طَعامَ شَرْكَسَ!

انطَلَقَتْ بِضعُ هَمْهَماتٍ مُمتَزِجَةٍ بِضِحْكاتٍ مَبتورَةٍ.

- أَكَلتَ طَعامَ شَرْكَسَ! أَلا تَخجَلُ مِن نَفسِكَ؟

أَخَذَ القِطُّ يَموءُ غاضِبًا، وَقَد دَخَلَ إِلى دائِرَةِ الضَّوءِ الَّتي تَصنَعُها النّارُ. شَكَكتُ أَنَّهُ يَفهَمُ الكَلامَ. كانَ قِطًّا شَركَسيًّا لَهُ مَظهَرٌ عابِسٌ. بَدا لي شِرّيرًا، كَأَنَّ القِطَّ يَكتَسِبُ صِفاتِهِ مِن صِفاتِ أَصحابِهِ.

دَفَعَني صاحِبُ تِلكَ العِبارَةِ الأَخيرَةِ بِعُنفٍ مِن كَتِفي فَتَراجَعتُ إِلى الوَراءِ، لِيَدفَعَني آخَرُ، وَهكَذا أَخَذوا يَدفَعونَني فيما بَينَهُم، إِلى أَن أَوقَفَهُم مَنْ بَدا لي أَنَّهُ كَبيرُهُم بِإِشارَةٍ مِن يَدِهِ. قالَ:

- حَسَنًا حَسَنًا! لا يَهُمُّ. دَعونا نَنْسَ الماضِيَ. أَنا مُتَأَكِّدٌ أَنَّ شَركَسَ سَيُسامِحُكَ إِذا أَعَدْتَ باقِيَ الجِوالِ، لكِن أَخبِرْني، مِن أَينَ أَتَيتَ بِهذا؟

وَرَفَعَ الشَّمْعَةَ وَعُلبَةَ الثِّقابِ أَمامَ وَجْهي.

صَمَتُّ. أَخَذتُ أُفَكِّرُ بِسُرعَةٍ. لا يُمكِنُني أَن أَقولَ مِن هُنا، فَسَتكونُ كِذْبَةً مَفضوحَةً، وَلا يُمكِنُني أَن أَقولَ الحَقيقَةَ، فَأَقودَهُم إلى مَأواي كَي يَستَولوا عَلَيهِ. ماذا يُمكِنُني أَن أَقولَ! لا يوجَدُ الكَثيرُ مِنَ الأَماكِنِ الَّتي يُمكِنُ الحُصولُ مِنها عَلى مَوادَّ نافِعَةٍ.

- أَنتَ الآنَ تُفَكِّرُ في كِذبَةٍ. أَستَطيعُ أَن أَرى الأَفكارَ في رَأسِكَ أَيُّها البائِسُ! لا تَكذِبْ، وَلا تُحاوِلْ. أَلا تَعرِفُ أَنَّ الكَذِبَ شَيءٌ سَيِّئٌ؟

ظَلِلتُ صامِتًا.

- حَسَنًا! لا بَأسَ. سَأُعفيكَ مِنَ الإجابَةِ، فَلَن تُضطَرَّ إلى الكَذِبِ، ما دُمتَ سَتَقودُنا إلى حَيثُ تَحتَفِظُ بِباقي الشَّمعِ وَالجِوالِ الخاصِّ بِشَرْكَس.

لا بُدَّ أَنَّ نَظرَةَ الرُّعبِ في عَينَيَّ قَد صارَتْ واضِحَةً لَهُ الآنَ.

- هذِهِ الشَّمعَةُ ذاتُ فَتيلٍ أَبيضَ غَيرِ مُستَخدَمٍ، إذا كانَتْ هِيَ الوَحيدَةُ لَدَيكَ، فَلا بُدَّ أَن تَكونَ قَد أَشعَلْتَها عِدَّةَ مَرّاتٍ خِلالَ الفَترَةِ الماضِيَةِ لكِن يَبْدو أَنَّ لَدَيكَ الكَثيرَ مِنها.

إنَّهُ شابٌّ يَنتَمي إلى عِصابَةٍ. إنَّهُ مُجرِمٌ، لكِنَّهُ ذَكيٌّ وَيُفَكِّرُ بِشَكلٍ مَنطِقيٍّ. لا بُدَّ أَنَّهُ كانَ طالِبًا مُتَفَوِّقًا أَو صاحِبَ مِهنَةٍ مَرموقَةٍ. رُبَّما لَو كانَ العالَمُ قَد ظَلَّ عَلى ما هُوَ عَلَيهِ لَكانَ إنسانًا مُحتَرَمًا وَمُفيدًا لِلمُجتَمَعِ. لَعَلَّ الحاجَةَ إلى البَقاءِ عَلى قَيْدِ الحَياةِ هِيَ ما دَفَعَتْهُ إلى هذا السُّلوكِ الإجراميِّ. هَل يَجِبُ أَن يُلْقى عَلَيهِ اللَّومُ، أَم عَلى الظُّروفِ الَّتي دَفَعَتْهُ إلى هذا؟

شَعَرتُ أَنَّني عاجِزٌ تَمامًا عَنِ المُقاوَمَةِ. كُلُّ الجُهدِ الَّذي بَذَلتُهُ في الأَسابيعِ الماضِيَةِ، كُلُّ هذِهِ العُزْلَةِ، كُلُّ هذا الأَلَمِ، ضاعَ سُدًى في لَحظَةٍ! لَقَد وَقَعتُ في الفَخِّ بِسَبَبِ تَسَرُّعي وَشُرودي، وَعَلَيَّ أَن أَدفَعَ الثَّمَنَ. جَسَدي هَزيلٌ وَذِهْني غَيرُ حاضِرٍ. لَقَد قَضى عَلَيَّ الجوعُ وَالوَحدَةُ وَالظَّلامُ. كُنتُ كَغَزالٍ ذَهَبَ لِيَشرَبَ مِنَ البُحَيرَةِ، فَأَطبَقَ التِّمساحُ بِفَكَّيهِ عَلى عُنُقِهِ. لا توجَدُ أَيُّ جَدوى مِنَ المُقاوَمَةِ. عَلى الغَزالِ أَن يَستَسلِمَ لِمَصيرِهِ وَيَموتَ في هُدوءٍ.

خَرَجْنا جَميعًا مِنَ المَتجَرِ فَلَفَحَنا الهَواءُ البارِدُ. التَقَطتُ بَقايا سَتائِري مِنَ الأَرضِ، وَحاوَلتُ أَن أَتَدَفَّأَ بِها، ثُمَّ سِرتُ أَمامَهُم، كَي أَقودَهُم إلى مَأواي، مُستَسلِمًا لِمَصيري المَحتومِ!


يتبع...